المحاضرة الأولى لمقرر الفلسفة الحديثة ف٢

أ.م. د. منال مرعي

التعريف بالفيلسوف الألماني شوبنهاور:

في النصف الأول من القرن التاسع عشر سادت روح التشاؤم بسبب ظروف العصر التي كانت سائدة، فالثورة الفرنسية كان لها تأثير قوي على الفلاسفة والشعراء وعلى عامة الشعب الذين هللوا لما وصل إليه حال الإقطاعيين، ومع واقعة واترلو والحال الذي وصل إليه نابليون، كان لا بد من ردة فعل تجلت بالحركات الرجعية التي عملت على طمس معالم الثورة الفرنسية فماتت هذه الثورة وتحطمت معها كل الآمال فكان وقع ذلك متجلياً في أثرين:

١- الطبقات الفقيرة التجأت إلى الدين ورأت فيه العزاء لما حصل، وأن هذا ليس إلا جزاء ما اقترفت إيديهم.
٢- الطبقة المثقفة طغت عليها الموجة الإلحادية المنكرة لوجود مدّبر ومنظم لهذا الكون، وبأن ما حصل ليس إلا دليل فوضى الحياة وعبثها.

ولد شوبنهاور بألمانيا في ٢٢-٢-١٧٨٨، كان والده تاجراً امتاز بالكفاءة واستقلال الشخصية وعرف بحدة طبعه، شبّ شوبنهاور بجو مشبع بروح العمل وكسب المال والميل للتعرف على الناس والعالم.

ورث شوبنهاور عن أبيه الخلق والإرادة، كما ورث عن أمه الذكاء المرهف باعتبارها أنبع من كتب القصص الأدبية في عصرها، ولعل هذا ما نغّص الحياة بين الزوجين، بين تاجر وأديبة، مما أجّج المشاكل العائلية بينهما، فكان نتيجة ذلك سوء العلاقة بين الأم وابنها حيث انتهى ذلك لخصومة بين الأم وابنها لا نهائية، كان لا بد فيها بالنهاية أن يتفق الأبن مع أمه بعد وفاة

الزوج منتحراً على أن يعيشا منفصلين، بل لا يزور الابن أمه إلا كما يزورها زائر بزيارة عابرة.

هذه الصلة الواهنه بين الأم وابنها لم تلبث أن انقطعت، حيث أن الشاعر الألماني غوته قد أنبأ الأم بأن ابنها شوبنهاور سيكون له شأن بالمستقبل، ما أزعج الأم كثيراً لأنها كانت تؤمن أن التاريخ لا يسمح بنابغتين في أسرة واحدة، حيث أدركت أن نبوغ ابنها سيكون انتقاصاً من نبوغها، ما انعكس سلباً أكثرعلى علاقتها بابنها، حيث دفعته ذات مرة من أعلى الدرج فسقط في نهاية الدرج قائلاً لها تذكري يا أمي لن يذكرك التاريخ إلا بوصفك أماً لشوبنهاور.

هذا الجفاء بين الأم وابنها كان لا بد أن يترجم بما سيكتبه شوبنهاور، من كآبه وتشاؤم وشك وشر.

عاش شوبنهاور في حياته وحيداً، لا أم ولا زوجة ولا أسرة ولا حتى صديق، ما دفعه إلى اللجوء نحو الريف منكباً على كتابة رسالته الدكتوراه التي نال على أثرها لقب الدكتوراه في الفلسفة. بعد ذلك عمل على كتابة مؤلفه الشهير "العالم كإرادة وتمثل"، لكن هذا الكتاب لم ينل الشهرة إلا مؤخراً لأنه في بدايات نشره لم تكن الناس ترغب بقراءة ما يزيد من بؤسها وتشاؤمها من العالم، فالفقر الذي كان منتشراً لا يناسبه كتاب يتحدث عن الفقر والشقاء الذي يزيد المعاناة.....

بقي شوبنهاور فترة طويلة يعاني الوحدة والعزله، إلى أن جاءته الفرصة ليحاضر في إحدى الجامعات الألمانية الشهيرة، وفي ذلك الوقت كان للفيلسوف هيغل ما كان من الشهرة والعظمة، لكن شوبنهاور أراد أن يبسط فلسفته ورؤيته للطلاب فما كان منه إلا أن وضع توقيت محاضراته في نفس توقيت محاضرات هيغل ما انعكس سلباً عليه، حيث كانت المقاعد في محاضراته فارغة، فكانت النتيجة الاستقالة من التدريس والغيظ من هيغل

الذي قضى بمرض الكوليرا، في حين عاش بعده شوبنهاور ٢٢ عاماً إلى أن توفي في ٢١-٩-١٨٦٠.

تميز شوبنهاور بكتابته اليسيرة الفهم وبأسلوبه البسيط، حيث أن جوهر فلسفته يتجلى في أن العالم إرادة، وهذه الإرادة يترتب عليها الكفاح والجهاد، وهذا الكفاح يُنبنى على البؤس والشقاء.

بناء على فكرته هذه يبدأ شوبنهاور بالقول أن العالم هو فكرتي عنه، أي ما نعلمه عن هذا العالم هو بواسطة حواسنا وأفكارنا، لكن المهم بالنسبة لشوبنهاور هو أن نتعرف طبيعة عقولنا أولاً لأننا بذلك نتعرف على العالم الخارجي بشكل صحيح.

فإذا كان الفلاسفة متفقون على أن الإنسان هو حيوان عاقل، فبرأيه لا بد من نبذ هذه المغالطة القديمة، ذلك وبرأيه وراء هذا العقل الواعي إرادة شعورية أو لا شعورية توجه الإنسان بما تلقي عليه من أوامر، فنحن نوجد الأسباب لأننا نريد أولاً وقبل أي شيئ.

وبذلك فكل ما أنتجه الإنسان من فلسفة ودين ليس إلا قناعاً يخفي فيه رغبته وإرادته، وبذلك يكون الإنسان حيوان ميتافيزيقي لأنه مسوق بإراته وحدها دون عقله، فنحن نجادل الشخص بالأسباب والبراهين ونعاني الكثير لإقناعه ليتضح لنا بنهاية الأمر أنه لا يريد أن يفهم، فلكي نقتع إنسان لا بد من اللجوء إلى ما يتناسب مع رغبته وإرادته.

إن شخصية الإنسان تشكلها إرادته لا عقله، بل الجسم نفسه هو من إنتاج الإرادة، ولعل أوضح ما تتضح فيه العلاقة بين الإرادة والجسد هي العواطف، فعمل الإرادة وحركة الجسم ليسا شيئين مختلفين بل هي صلة العلة بمعلولها، أي هما شيئ واحد، أي عمل الجسم ليس إلا عمل الإرادة مجسداً، فليس الجسم إلا إرادة تجسدت، فالأسنان والأمعاء هي الجوع قد تجسد.

ولكن مالفرق بين العقل والإرادة؟

- العقل يتعب أما الإرادة فلا تعرف للتعب معنى.
- العقل يحتاج النوم أما الإرادة فتواصل نشاطها حتى في حالة النوم.
- العقل يغذيه النوم أما الإرادة فلا تحتاج إلى تغذية.

الإرادة إذاً هي جوهر الإنسان، فماذا يمنع أن تكون جوهر الحياة في كل صورها، لما لا تكون الإرادة هي الشيئ في ذاته الذي لطالما بحثنا عنه؟ إن هذه الإرادة هي إرادة الحياة التي لا تخضع لا لعقل ولا لمنطق، بل تكافح كفاحاً أعمى وأبكم... فمعظم الموجودات تعمل بلا شعور لكنها تسير تبعاً لإرادتها.

هذه الإرادة هي إرادة الحياة التي تسيطر على الكائنات كلها، والتي عدوها اللدود هو الموت، ولكن كيف ستهزم هذه الإرادة الموت؟

إن الإجابة على هذا السؤال ستكون محور محاضرتنا القادمة انشاء الله.